

عجب أن يكون الفكر نشاطاً إنسانياً بارزاً ، وإن كان عند
ديكارت أعدل الأشياء توزعاً بين الناس . والتفكير أضيق نطاقاً
من التمييز ، فهو كالقوة الكهربائية لها طاقة تدير الآلات وتدير
أمور الحياة .

ويكون التفكير صحيحاً إذا روعي فيه شرائط أربع :

أولاً : استيضاح موضوع التفكير بالألمام بشتى خصائصه .

ثانياً : امتحان الوسائل الممكنة لإتيانه قولاً أو عملاً أو معرفة
أو اعتقاداً .

ثالثاً : اختيار أقرب المسالك وأقوم السبل .

رابعاً : الربط بين هذه الشرائط جميعاً .

والواقع أن تلك هي خطوات التفكير العام عند المهندس
والكيميائي والفيلسوف جميعاً حينما يزاول أحدهم فنه ، بل هو
منهج السلوك الإنساني في هذه الحياة . ونحن إذ نفكر نزداد
قدرة على التفكير يتسع معها مجاله ، وبراعة التفكير نستلزم التمتع
والتوسع معاً ، كما هو الشأن في تخصص العلماء في أدق الأمور .
التفكير إذن تفاعل بين القوة المفكرة ومظاهر الوجود ،
واللغة نتيجة هذا التفاعل . ولما كان الناطق هو المفكر المبرم معاً ،
فإن اللغة إذن مكانها من الإنسانية . إذ الإنسان مفلور على الاجتماع
ببني جنسه اجتماعاً إنسانياً أي بكلا شطري إنسانيته . أما الشطر
الأول — وهو التفكير — فلا يكفي وحده لتحقيق هذا الترابط ،
وكذلك الشطر الثاني — وهو التمييز — لا يكفي وحده لتحقيق
ذلك . فكان من اللازم أن تتحالف اللغة والفكر ما دامت الإنسانية
وما دام الوجود .

ولما كانت اللغة تستوعب الفكر ، فقد أصبحت المنصر
الأول والدائم في التقدم والعمران . فالناس يتربطون باللغة
ويتعاملون بها ، وكلما بسرت اللغة بين الناس ، خطوا نحو الحضارة
بأوسع الخطوات ، وما طرق المواصلات على اختلافها إلا لغات بين
الأفراد والتبائل والشعوب . والإنسان بطموحه المبهود لا يكفي
بما لديه من مواصلات ، ولا يقف نشاطه على عوالم يرقها ويتعامل
معها ، لذلك عمل على التعرف بأبناء الكواكب ، والتحدث إليهم
في شعورهم وفتونهم ، وأعانهم على ذلك تطور المواصلات من التعميد

اللغة والفكر . . .

للاستاذ محمد محمود زتون

جرت العادة في تعريف الإنسان على أنه حيوان ناطق ،
وهذا النطق الذي امتاز به الإنسان عن الحيوان معناه التفكير
والتمييز . والتمييز عبارة تجر في عالم الأفعال تفرقة بين
وتزاعها لعالم الخارج ، بإشارات إرادية مسموعة أو مقرودة
هي اللغة .

اللغة لا تتحقق من دون فكر . وقد يكون فكر من غير
لغة ، لأن الفكر إما نفساني أو لساني ، والأول منها أقرب إلى
الوجود من الآخر . لأن الوجود هو موضوع الفكر ومجال
نشاطه . والفكر بدوره يصبح موضوع اللغة ودعائها الأولى .
ثم هو موجود ما دام الوجود ، وحيث لا وجود فلا فكر ، وليس
يصح في الأذهان أن شخصاً يفكر في لا شيء ، أو أنه لا يفكر في
شيء . والتفكير أدل على الوجود من التمييز : فإن كل المفكرين
أحياء ، وليس كل الأحياء مفكرين ، ولذا قال ديكارت قائلاً
للمشهورة «أنا أفكر ، فأنا موجود»

ونحن بذلك نخالف «لويس دي بونالد» في قوله بأن لا فكر
بدون لغة ، ذلك بأن الفكر هو عالم المعاني النفسانية ، واللغة
عالم الألفاظ اللسانية . واللغة كمال الفكر . ولا عكس ، لأنها
تستوعبه ، وهو لا بد له منها ، وهي لا بد لها منه ، ولما كانت
صورة التمثال دليلاً على مادته ، والثوب دليلاً على لابس ، فهل
اللائح دليل على معناه ؟ وعلى أي وجه تكون دلالة اللفظ على
المعنى ؟ وبعبارة أخرى ما النسبة بين اللغة والفكر ؟

البارعون قليل ، وهم يمتحن الناس على كثرتهم أن يكونوا
أمثال هؤلاء البارعين على قلتهم ، وهذا ما نراه في ازدحام الناس
على سماع فنان يقنى ، ونحن جميعاً نأكل اللحم أصنافاً والأرانا ،
ولكن يندو منا من يعرف كيف يتخير اللحم عند القصاب .
وكلنا نفكر ولكن أقلنا من يفكر تفكيراً صحيحاً سليماً .

فإذا كان الفناء براعة ، ومعرفة أصناف اللحوم براعة ، فلا

نفديرا وتقريرا . فدلول اللفظ واحد عند كل الناس ، ولكن
مناه يختلف في الكيف والكم عند كل واحد منهم على حدة .
وعلى ذلك يكون لدينا : اسم ومسمى وفكرة . وغالبا ما يتحد
الاسم ، وغالبا ما يتحد المسمى ، ولكن من المحال أن تتساوى
الفكرة لأنها أشبه بدوائر الماء ألق فيه بحجر ، فهي تتسع وتتسع
إلى ما لا نهاية له من الأمواج .

الفرق ، افرح بين الاسم ، والفكرة لأن الاسم هو الدلالة على
المعنى الاصطلاحي الذي يفهم من اللفظ عند إطلاقه ، والذي من
أجله أطلق الاسم على مسماه دون غيره ، أما الفكرة فهي مفهوم
الشيء من غير قيد ولا شرط . ولا بأس من التعرض للخلاف
الفلسفي اللطيف الذي دار بين J.S. Mill (جون استيوارت مل)
و (جيفوز) ، فالأول يعتبر المعنى اصطلاحا وصالحا للتعامل
لأنه عام ، ويسميه Connotation والآخر يعتبره فكرة خاصة
بصاحبها ويسميه Comprehension أو Subjective Intention فهو
خاص أو أخص الخاص ، وذلك أدعى إلى الفرق والخلاف ،
بسبب اختلاف الناس في مدى تجاربهم عن الحياة ، ولعدم وجود
رابط للتوفيق بينهم ، مادام السلوك الإنساني شخويا ،
والسلوك الحيواني فرديا . إذ الإنسان - كما يرى علماء البيولوجيا -
(شخص) Person بينما الحيوان (فرد) Individual
ومع ذلك لو تركنا للفكر حبله على غاربه للذهب بنا إلى
وديان ومناهات لا نهاية لها ، ولا متنع - مع هذا التيه والبهاد -
ما هو مرجو من الفكر ، لتحقيق أغراض اللغة كأول رابطة
تماونية بين الإنسان والإنسان .

لهذا تنازل الناس إلى بعضهم بعضا عن الحقوق المحفوظة في
الخواطر والشاعر والأنظار ، وهدام الأمر إلى الاتفاق على مسمى
الاسم وهو القامم المشترك الأعظم بين أفكار الناس من مفاهيم
الألفاظ .

وما تقوى تركيز الأعمار ويمنع تشقتها استغراق الشاعر
والمبول في النظر إلى الأشياء . فكلاما أتحدث مشارب الناس
وتواقفت طباعهم وعوائدهم قل الخلاف على معاني الأشياء اختياراً
واستعمالاً . وعلى العكس من ذلك إذا تنافرت الطباع وتناكرت

إلى التبسيط ، ومن البطيء إلى السريع : من رجليه إلى أحدث
ما عرف وسيمرف من وسائل ؛ تدرجت من الدواب إلى المجلات ،
من السيارة إلى الطائرة ، إلى الصاروخ الأوتوماتيكي ، ومن
التليفون إلى التلفزيون ، ومن الطرق البرية والبحرية والجوية إلى
اللاسلكية ، ومن التليفزيون إلى التليترنتر ، وما تزال الليالي حبال
يلدن كل عجيبة ، وذلك اتجاه لا ننكره على العقل الاساني الذي
لا نظرة الفهم ، ولا محتما الكثرة ، ولا حصر محما الأتقال :
فقدما لم يعرف الإنسان العدد ، وقدما أخرج (بافل) لسانه ليكمل
بأسابه المشرثن جدى اشتراه ، وما زال العقل يختزل حتى
عرف خصائص العدد فأغنته عن المدود ، ورق من الأرقام
الحماوية إلى الرموز الجبرية ، ومن الأشكال الهندسية إلى التحليل
الهندسي ، فاستحالت النظريات الهندسية من ألفاظ تنطق وأشكال
ترسم إلى معادلات .

واللغة مكتوبة أو منطوقة هي إشارات لا تمت إلى ما تشير
إليه بصلة من قريب أو بعيد ، فليس نمة شبه ولو قليلا بين كلمة
« كلب » أو صوتها أو شكل كتابتها ، وبين الحيوان المشار إليه
بها لا شكلا ولا لونا ولا طمها ولا أى شىء آخر . بل يروى أن
سبب تسمية حيوان « الكنجاروه » هو أن الانجليز عند استعمارهم
استراليا ، سألوا أحد السكان عن اسم هذا الحيوان فقال « كنجاروه »
أى « لا أدرى » فظن الإنجليز أن هذا الحيوان اسمه « لا أدرى »
فصار اسما ملازما ، والواقع أن الانجليزى والاسترالى وغيرهما
يعرفون الحيوان ويدركون صورته ، ولكنهم - وإن اتفقوا
على تسميته باسم « الكنجاروه » - لا يدرون من سبب لتسميته .
والحق أننا نجارى السابقين فيما تواضوا عليه من أسماء ،
وأن اللاحقين يجاروننا فيما توارثناه عن السابقين من غير معارضة
ولا مناقشة ، ومن غير ما سبب أو ضرورة .

ومما هو جدير بالذكر أننا بالاتفاق والاصطلاح نجمع على
المشار إليه أولا ثم على ما نشير به إليه ، وبذلك يكون المقعد اللغوى
صحيحا . فالشئ واحد واسمه واحد . ولكن هل أفكارنا عن
المسمى واحدة ؟

الواقع أنها ليست واحدة ، ولن تكون كذلك : لأن
مشاعرنا وميولنا - فضلا عن مدى معارفنا - كلها تحدد أفكارنا

ثانياً : « التضمن » أى يكون اللفظ دالاً على جزء من أجزاء المعنى المطابق كما نطلق لفظ الإنسان على الحيوان وحده ، وافظ البيت على الجدران فقط .

ثالثاً : « الالتزام » أى يكون اللفظ مطابقاً للمعنى الذى يلزمه أمر آخر ليس جزءاً منه ولكن مصاحباً وملازماً ومستتباً . كما نطلق لفظ المخلوق على الخالق ولفظ البيت على الكوخ .

ودلالة الالتزام ليست في الحقيقة دلالة لفظية ، بل هي انتقال الذهن من المعنى الذى دل عليه اللفظ بالوضع إلى معنى آخر ملاصق له أو قريب منه . فاللفظ يدل على المعنى كله أو جزئه أو شيء آخر خارج عنه ملازم له .

والمعلوم إنما تتمم الألفاظ المطابقة على معانيها حتى لا يختلف في الأمر اثنتان أو على الأقل يكون الخلاف أقل من أى خلاف آخر توجد الدلائل الأخرى . فدلالة التضمن ودلالة الالتزام هما سبب شطحات الخيال ، وتزوات السفسطة . ودلالة المطابقة لا تكون إلا بالاتفاق والاصطلاح . وحرصاً على التركيز العلمى ، عمدت كل طائفة من العلماء إلى معاجم اتفقوا على وضع مصطلحاتها ، ولهذا المعاجم القول الفصل في كل خلاف . من ذلك ما صرح به المستر تشرشل إبان الحرب الأخيرة إذ قال *Egypt which is under our protection* ، فإكان من سياسة مصر النابيين إلا أن فطنوا إلى التورية الإنجليزية والالفة اللولبية التى اشتهرت بها ، فطلبت حكومة مصر إيضاحاً لهذه الكلمة التى ربما انطوت على معنى « الحماية » التى جاهدنا بأموالنا ودمائنا فى سبيل فك أغلالها عنا ، ونزع كابوسها ، فإلبت تشرشل أن فسر قصده بأننا علينا أن نحميها *Protet it* وفق الماهدة وبذلك انحسم النزاع ، وأغمدت الدماء فى القلوب .

ولا شك فى أن دلالة الضموم تنى الأديب الذوى فى بحثه عن البيان والمجاز من إرادة الكل وإطلاق الجزء ، كما أن دلالة الالتزام لا تنى النطافى ولا الذوى وإعانتى أهل الفن فى تخييلاتهم ، وتصويراتهم ، فالشاعر يتخيل ويتصور ، ويخلع على الموجودات والمانى من شخصه روحاً وجسداً ، والمثال يبرز المعانى ويجمعها

الأرواح بمد ما بين الناس ، وصعب التوفيق ، وضار صرخة فى واد . أو نفخة فى واد .

فى المتمد ٢٢٢ لغة يصعب معها تعاقم القادم من (عباى) مع المقيم فى (مدراس) ، وليس ذلك إلا مظهراً للاختلافات والفوارق الاجتماعية . فلا عجب إذا قلنا إن الانحلال الاجتماعى يتبعه دائماً انحلال لتوى ، إذ تعود الأذهان إلى الفوضى الذهنية الأولى التى تنمى الاتفاقات والماهدات متفرقة على عرض الحائط .

وهكذا تكون اللغة مرآة تنمكس على صفحتها مجرى الحياة القومية لشعب من الشعوب ، فقد طفت الموجة السفسطائية على الحياة اليونانية ردحا من الزمن فقتشت الشمل ، وساد الانحلال الخلقى ، واستبدت بالشباب نزع الاستعلاء بالباطل ، والتزويج والتزويق ، وكادت الروح اليونانية تلقى مصرعها النهائى لولا أن أتاح الله للفكر الإنسانى سقراط الحكيم الذى وجه كل كتابه الأولى نحو تحديد الألفاظ ، ققطع على السفسطائين إفاء عليهم ورد إلى الإنسانية كرامتها الفكرية .

والإنجليز بسودم (السادية) حتى فى مجال الحياة المعنوية ، فهم يقولون *Pay a visit* زر ويقولون *Pay Attention* انتبه وهكذا يجمعون الزيارة والانتباه كالسال يدفع

كما أن الفرنسيين يهتمون بالبالغة والمبالاة ، لهذا تمددت فى لغتهم مرادفات كلمة (جدا) فيقولون : *trés, trop, si, assez, bren, Complètement, entièrement, tout, à fait, beaucoup, parfaitement, rigoreusement, absolument,*

وهكذا تكون اللغة مقياساً دقيقاً للروح القومية فى خصائصها العامة من جهة ، وفى التضامن الاجتماعى أو التفكك والانحلال من جهة أخرى .

والسر الخفى فى هذا التماس يرجع إلى النسبة بين اللفظ والمعنى ، لهذا يجب أن نعرف أن دلالة اللفظ على المعنى تكون بإحدى ثلاث :-

أولاً : « المطابقة » أى يكون اللفظ عين المعنى وليس غيره . كما نطلق لفظ الإنسان على الحيوان الناطق ، ولفظ البيت على مجموع الجدران والسقوف .